الرجل الخفي

للكاتب العصصي جابرييل كيت تشستيرتن

بقلم الأستاذ عبد الحميد جمدي

في ساعة النسق ، وقد رطب الجو ومال لون الوجود إلى الزرقة الفاتحة ، بدا حانوت الحلواني ، القائم على ملتقى شارعين متقاطعين في بلدة « كامدن تون » كأنه شعلة سيجارة وهاجة ، أو بعبارة أدق في الوصف ، كأنه رأس عود من أعواد الألعاب النارية ، فقد كانت مصابيحه مختلفة الألوان مشبك بعضها في بعض ، تنكسر أشعتها على كثير من المرائي ، وتتماوج على كثير من الكعك والحلوى الملونة بألوان الذهب وغيره من الألوان البهيجة ، وفي هذه الواجهة الزجاجية الوهاجة تلتصق أنوف كثيرين ممن تبهرهم الألوان الزاهية ، فقد كانت قطع الشكولاتة ملفوفة في ورق ملون بالأحمر والذهبي والأخضر إلى آخر هذه الألوان المدنية التي تفضل ، في نظر الصغار ، قطع الشكولاتة نفسها . أما كعكة الزفاف الكبيرة البيضاء فكان منظرها كافياً لأن يرسم للعين صورة من القطب الشمالي وقد استحال إلى مادة مما يأكل الناس . وكانت هذه المجموعة من المغريات التي انتظمت ألوان قوس قزح كافية لأن تجذب إلى واجهة الحانوت كل أطفال الحي المجاور من سن العاشرة إلى الثانية عشرة . على أن هذه النقطة من ملتقى الشارعين كانت كذلك جذابة لأنظار الشباب ممن تجاوزوا هذه السن الصغيرة ، فقد وقف أمام الحانوت فتى لا تقل سنه عن الرابعة والعشرين ، يحدق بنظره فيما وراء الزجاج ، وقد بدا الحانوت ، في نظره هو أيضاً ، قطعة من الجمال الناري تخطف الأبصار ، وقد لا تكون الشكولاتة وحدها هي التي استرعت أنظار الفتى وإن لم يكن هو على أي حال ممن يبغضون هذا النوع من الحلوى .

كان الفتى طويل القامة جسيما ، أحمر الشعر ، تبدو على وجهه دلائل الحزم ، وديع الخلق وكان يتأبط حافظة رمادية كبيرة تضم بين دفتيها عدداً من الصور الفحمية ، التي كان يبيعها للناشرين بأثمان لا يهمه أن تكون غالية أو رخيصة ، وذلك منذ أن حرمه عمه (وكان من أمراء البحر) ميراثه لخلاف بين رأيهما في النظرية الاشتراكية ، وكان الفتى ، واسمه جون تيربل أنجوس ، قد أتى محاضرة في هذا الموضوع

انتهت وقفة الفتى أمام الحانوت بدخوله واجتيازه القسم الخارجي المعروضة فيه الحلوى ، إلى الغرفة الخلفية التي جعلت مطعما تقدم فيه أنواع الفطائر ، رافعاً قبعته تحية للفتاة المشتغلة بتلبية مطالب رواد الحانوت ، وكانت فتاة سمراء رشيقة متيقظة ترتدي ثوباً أسود مرتفع الياقة ، سريعة الحركة سوداء العينين ، وبعد الفترة التي تعقب دخول الزائر عادة لحقت الفتاة بالفتى لتتلقى أوامره

وكان طلبه من الطلبات العادية إذ قال :

— أرجو أن تجيئي بكعكة صغيرة وفنجان من القهوة السوداء

ولم تكد الفتاة تلتفت لتأخذ طريقها إلى حيث تحضر له ما طلب حتى أضاف إلى جملته السابقة قوله :

— كذلك أريد أن تقبليني زوجاً

فجمدت الفتاة فجأة في مكانها وقالت :

— هذا مزاح لا أستسيغه

فرفع الفتى الأحمر الشعر عينيه الرماديتين وقد بدا فيهما من معاني الجد والفرح ما لم يكن منتظراً وقال :

— إني أقصد ما أقول صدقاً وحقاً ، وأنا جاد في قولي مثل جدي في طلب الكعكة وما أطلبه غال غلاء الكعكة ، فإني أدفع له ثمناً ؛ ثم هو عسير الهضم مثل الكعكة أيضاً وهو إلى جانب ذلك موجع . . .

لم تحول الفتاة السمراء عينيها لحظة عن الفتى في أثناء حديثه ولكن لاح عليها كأنها تفحصه فحصاً دقيقاً تتجلى فيه معاني الأسى ، وما انتهت من هذا الفحص حتى جلست على كرسي بالقرب منه

فقال أنجوس وهو شارد الفكر :

— ألا ترين أن من القسوة أكل هذه الكعكات الصغيرة ؟ أليس من المحتمل أن تنمو فتصبح بعد حين كعكات كبيرة ؟ لقد اعتزمت الامتناع عن هذا النوع من الرياضة حتى نتزوج

ووقفت الفتاة واتجهت إلى الواجهة الموضوعة فيها الحلوى وقد بدا عليها أنها منهمكة في تفكير عميق ولكنه غير كريه . فلما عادت إلى حيث الفتى وقد ظهر عليها أنها اعتزمت أمراً ، راعها أن وجدته ينظم فوق المائدة ، في كثير من العناية ، مواد عديدة أخرجها من واجهة الحانوت ، بينها هرم كبير من الحلوى الملونة ، وكثير من أطباق السندوتش ، وأغلى الفطائر المصنوعة بالفاكهة . وفي وسط ذلك الترتيب الدقيق وضع الكعكة الكبيرة البيضاء التي كانت زينة الواجهة

فقالت الفتاة مضطربة :

— أي شيء هذا الذي تفعل ؟

فأجاب :

— أعمل الواجب يا عزيزتي لورا

فصاحت الفتاة به :

— بالله قف لحظة ولا تخاطبني بمثل هذه اللهجة إني أود أن أعرف معنى هذا كله ؟

— هي وليمة احتفاء يا مس هوب

فأشارت الفتاة إلى الكعكة الكبرى وقالت وقد نفد صبرها :

— وما هذه ؟

فأجاب الفتى :

— هي كعكة الزفاف يا مسز أنجوس

فأخذت الفتاة الكعكة وأعادتها إلى مكانها في شيء من الانفعال ثم عادت فأسندت مرفقها الجميل إلى المائدة ونظرت إلى الفتى نظرة إن تجردت من معاني البغض فقد جمعت بعض معاني الغيظ وقالت :

— إنك لم تترك لي وقتاً للتفكير

فأجاب :

— أما لست ذلك الغبي الذي يترك لك الوقت للتفكير . وهذه هي عقيدتي المسيحية

وكانت الفتاة لا تزال محدقة في وجهه وعلى فمها ابتسامة انطوت وراءها معاني الجد ، فقالت في صراحة :

— قبل أن تمضي لحظة أخرى في مثل هذا السخف يجب أن أخبرك في اختصار عن شيء يتصل بشخصي

فأجاب أنجوس فى لهجة الجد :

— يسرنى أن أسمع ما تقولين ، فقد تقولين كذلك فى الوقت المناسب شيئاً عن شخصى أنا ...

فأجابت الفتاة :

— بالله احفظ لسانك وأصغ إلى فليس فيما أقول ما يخجلنى ، بل وإنه ليس بالأمر الذى آسف له على وجه أخص ولكن ما قولك فى أمر ليس هو من عملى ولكنه الكابوس الذى يلازمنى ؟

فقال الفتى جاداً :

— فى هذه الحال أقترح أن تعيدى الكعكة إلى هذه المائدة

فقالت الفتاة فى إلحاح :

— يجب أول كل شىء أن تصغى إلى قصتى . وليكن أول ما أرويه لك أن أبى كان يملك الفندق المسمى « بالسمكة الحمراء » فى لودبرى وقد تعودت أن ألبى طلبات العملاء فى المشرب

فقال الفتى :

— لقد كنت دائماً أعجب لماذا أشعر بروح مسيحي يرفرف على هذا الحانوت وحده

فمضت الفتاة فى حديثها تقول :

— ولودبرى قرية صغيرة هادئة خاملة فى المقاطعات الشرقية ، وكان العملاء الوحيدون الذين يفدون على فندق « السمكة الحمراء » هم التجار المتجولون ، أمامن عداهم فأبشع من يمكن أن ترى من الناس ، وفى اعتقادى أنك لم تر قط أحداً من هذا الصنف من المخلوقات ، فهم رجال ضئال الأجسام معربدون لهم من الدخل ما يمكنهم من أن يعيشوا بين احتساء الخمر والمراهنة على الخيل مرتدين أحقر الملابس التى تعد فى الواقع أحسن ما يليق بهم .

وحتى هؤلاء لم يكونوا كثيرى التردد على فندقنا ولكن كان بينهم اثنان عاديان فى كل ناحية من نواحى الحياة .

كانا يعيشان على ما لديهما من مال وكانا كسولين كسلا يضايق الذى يعاشرهما ، وقد تعودا أن يرتديا من الملابس أكثر مما تدعو إليه الحاجة . على أننى كنت أرثى لحال ذينك الرجلين ، إذ كنت أميل إلى الاعتقاد بأنهما لا يأويان إلى مشربنا الصغير الحالى إلا لأن كلا منهما مصاب بنوع من التشوه يضحك منه الأجلاف من الناس . على أن استعمال كلمة « تشوه » فى وصفهما قد يكون فيه شىء من التجاوز وقد تكون كلمة « شذوذ » أقرب إلى وصف حالهما ، فقد كان أحدهما صغير الجسم صغراً مدهشاً يكاد يكون قزماً أو على الأقل « ركيباً » من أصغر « ركيبة » الخيل أجساماً . ولو أن منظره لا يتفق فى قليل أو كثير مع منظر « الركيب » ، كان مستدير الرأس أسود الشعر معتياً بقص لحيته الكثة السوداء ، ذا عينين تشبهان فى بريقهما عيون الطيور يحمل فى جيبه كثيراً من النقود ويعلق بصدره سلسلة ساعة كبيرة من الذهب ، ولم يحضر مرة إلا مرتدياً أخر ما يستطيع أن يرتدى من ملابس ، على أنه لم يكن بالرجل الأبله وإن يكن كسولا إلى أقصى حدود الكسل ، ولكنه كان من ناحية أخرى بارعاً فى كثير من الأمور التى لا فائدة منها ، أكثرها ألعاب بهلوانية ، كأن يجعل خمسة عشر عوداً من الكبريت يشتعل أحدها من الآخر على التوالى على غرار الألعاب النارية ، أو يقطع ثمرة الموز أو ما يشبهها على مثال العروس الراقصة التى يلعب بها الأطفال ، وكان اسم هذا الفتى إيزيدورا سمث ، وإنى لا أزال

أتمثل صورته وهو مقبل على الخزانة محركا فى يده خمس سجارات على مثال ابن آوى فى قفزاته

« أما الشخص الآخر فكان أكثر هدوءاً كما كان أقرب إلى الرجل العادى من صاحبه ، ولكنه قد أزعجنى بطريقة ما أكثر مما أزعجنى اسمث المسكين . كان مفرطاً فى طول قامته نحيف الجسم ، خفيف الشعر ، أفنى الأنف لحد يسترعى النظر ، وكان من المحال أن يبدو حسن المنظر فى عين من يراه لولا ما فى عينيه من حول لم أر أو أسمع بمثله فى إنسان سواه ، فهو إذا نظر إليك مباشرة لم تعرف أين أنت واقف ولا عبرة بالنقطة التى يكون محدقاً فيها . وأظن أن هذا العيب كان يؤلم ذلك الفتى إلى حد ما . ولما كان اسمث يمرض علينا ألعابه المختلفة لم يكن هذا الفتى ، واسمه جيمس ولكن ، يقدر على شىء غير أن يزرع غرفة المشرب جيئة وذهاباً أو يخرج إلى الخلاء فيطيل الشى لغير قصد معين . وفى اعتقادى أن اسمث أيضاً كان يشعر بما فى شكالة جسمه من عيب ولكنه كان دائماً يخفى ذلك العيب بخفة ورشاقة ، لهذا كان من أكبر بواعث اضطرابى وحيرتى أن تقدم لى الاثنان فى وقت واحد طالبين يدى للزواج

والحق أننى قد أحببتهما ولا أزال منذ ذلك الحين أعد ذلك نوعا من الحماقة ، ولكن كان هذان الرجلان على أى حال صديقين لى ، ولقد أزعجنى أن يتسرب إلى ظنهما أننى أرفض الزواج منهما لشدة قبحهما لذلك أردت التخلص منهما بطريق لا تؤذى شعورهما فقلت إننى قد اعتزمت ألا أتزوج إلا من رجل يكون قد شق طريقه فى الحياة بمجهوده فمن المبادئ التى أدين بها ألا أعيش من مال موروث من الغير كالمال الذى يعيشان منه . وبعد يومين من هذا الحديث بدأت المتاعب تتوالى ، فقد كان أول ما سمعته أن الفتيين قد غادرا القرية ليشقا طريقهما فى الحياة كما لو كان الأمر قصة خرافية

ومن ذلك التاريخ حتى هذه الساعة لم أر أحدهما . ولكنى تلقيت خطابين من الرجل الصغير الجسم المسمى اسمث ، والحق أنهما كانا خطابين شائقين إلى مدى بعيد

فسألها انجوس :

— ألم تسمعى قط شيئاً عن الرجل الآخر ؟

فترددت الفتاة لحظة ثم قالت :

— كلا ، فانه لم يكتب إلىّ قط ... وكان الخطاب الأول من اسمث قاصراً على قوله إنه خرج من القرية مع « ولكن » ماشيين على الأقدام فى طريقهما إلى لندن ، ولكن « ولكن » كان سريع الخطى صبوراً على المشى فلم يستطع هو أن يجاريه وسقط متعباً فجلس فى جانب الطريق يستريح حيث التقطته فرقة من المهرجين الذين يفرضون ألعابهم على أنظار الجمهور ، فكان صغر جسمه الذى يجعله أقرب إلى الأقزام ومهارته فى الألعاب البهلوانية الخفيفة سبباً فى حلوله بين الفرقة محل العناية حتى لقد أرسل بعد قليل إلى الأكواريوم لعرض بعض الألعاب التى نسيتها . وهذا هو كل ما احتوى عليه خطابه الأول . أما الخطاب الثانى فكان أشد تشويقاً وإثارة من الأول ، وقد تلقيته فى الأسبوع الماضى فقط

جرع الفتى المسمى انجوس ما بقى فى فنجان القهوة ونظر إلى الفتاة بعينين تجلت فيهما معانى الوداعة والصبر ، وما استأنفت حديثها حتى افتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة وقد قالت :

— أظنك قد قرأت في كل مكان أعد للصق الاعلانات هذه الجملة « خدمة اسمث الصامتة » وإلا فأنت الانسان الوحيد الذى لم يقرأها . على أنى لا أعرف نوع هذه الخدمة ، وكل ما أستطيع أن أفهمه هو أنها اختراع أشبه باختراع الساعة يؤدى جميع الخدمات البيتية بطريق آلية فمثلا « اضغط الزر يأتك الساق الذى لا يشرب أبداً » و « اليد تحضر إليك عشر خادمات لا يغزلن أبداً » هذا بعض ما نشر فى الاعلانات فلا بد من أن تكون قد قرأته . على أنه مهما يكن من أمر هذه الآلات فانها قد جعلت ثروة طائلة لذلك الفزم اسمث الذي عرفته فى لودبرس وما أستطيع إلا أن أشعر بالسرور لنجاح هذا الفتى المسكين ولكن الذى يزعجنى الازعاج كله هو أن يعود اسمث إلى هنا ليقول لى إنه قد شق طريقه فى الحياة وإنه لقد فعل

فكرر أنجوس سؤاله وقد بدا عليه نوع من الهدوء العجيب :

— والرجل الآخر ؟

فهمت لورا هوب فجأة واقفة على قدميها وقالت :

— إنى لأظنك ساحراً يا سيدى . الحق أنك لعلى صواب ، فاني لم أر فى حياتى سطراً واحداً من خط الرجل الآخر وليست عندى أية فكرة ولو غامضة عن كنهه ومكان وجوده ، ولكن هو وحده الذى أخافه ، فهو الذى يعترض طريق دائماً ، هو الذى يكاد يذهب بعقلى ، بل فى الحق إنى لأظنه قد ذهب بعقلى فعلا ، لأنى أشعر به حيث لا يمكن أن يكون ولقد سمعت صوته حيث لا يمكن أن يكون قد تكلم

فقال الفتى وقد بدا عليه أثر الانشراح :

— حسن يا عزيزتى ، إنه لو كان هو الشيطان نفسه فقد قضى عليه الآن نهائياً بعد أن تحدثت بأمره إلى شخص ثالث ، فان الانسان ليكاد يجن إذا هو عاش منعزلاً عن الناس ، ولكن أتذكرين الوقت الذى خيل إليك فيه أنك شعرت بوجود صاحبنا الأحول وسمعت صوته ؟

فقالت الفتاة فى غير تردد :

— لقد سمعت ضحك جيمس ولكن واضحاً كما أسمع حديثك الآن ؛ ولم يكن هناك من أحد سواى فقد كنت واقفة خارج الحانوت على الناصية أستطيع أن أرى الشارعين فى وقت واحد ، ولقد نسيت كيف ضحك ولو أن ضحكته كانت غريبة مثل حوله ولم يخطر ذكره على بالى حوالى عام كامل ، ولكن ما لا شك فيه أنى شعرت بوجوده بعد ثوان من تسلمى الخطاب الأول الذى جاءنى من منافسه

فسألها أنجوس وقد بدا اهتمامه بحديثها :

— هل حلت خيالة مرة على الكلام أو الصراخ أو أى شىء من هذا القبيل ؟

فارتجفت لورا فجأة ثم قالت بصوت غير مضطرب :

— نعم إنى لم أكد أنتهى من قراءة الخطاب الذى جاءنى من ايزبدور اسمث والذى أعلن فيه نجاحه حتى سمعت ولكن يقول « وعلى الرغم من ذلك لن ينالك » وكان كلامه واضحاً كما لو كان جالساً معى فى الغرفة . . . وهذا أمر مروع وإنه ليخيل إلى أننى قد جننت

فقال الفتى :

لو أنك كنت حقيقة مجنونة لفكرت فى أنك لا بد أن تكونى عاقلة . ولكن يلوح لى من غير شك أن هناك شيئاً عجيباً حول هذا السيد الخفى عن الأعين ، ورأسان خير من رأس واحد فلو سمحت لى أن آتى

يكمنة الوقوف مرة أخرى من الواجهة ...

وبينما الفتى يتكلم سمع فى الخارج صوت معدنى دفيع ثم صوت عرك سيارة تجرى فى سرعة شيطانية حتى إذا وصلت إلى باب الحانوت وقفت واندفع منها كالسهم فتى ضئيل الجسم على رأسه قبعة عالية لامعة فوقف فى وسط القسم الخارجى

فقطع انجوس حديثه وخرج إلى حيث وقف القادم ووقف منه وجهاً لوجه . فكانت نظرة واحدة كافية لأن تشعره بأن هذا القادم الجديد رجل ملك المرام عنانه ، وقد عرف فيه انجوس ذلك الشاب ايزيدور اسمث الذى وصفته له لورا من قبل . هذا هو اسمث الذى جمع من صناعة الساق الذى لا يشرب والجارية التى لا تنازل ملايين الجنيهات . هذا هو ايزيدور اسمث الذى يصنع العرائس من قشر الوز وأعواد الكبريت . وقف الرجلان لحظة ينظر أحدهما إلى الآخر نظرة الكرم الباردة الغريبة التى تنم عن روح المنافسة

على أن مستر اسمث لم يشر قط إلى موضع المنافسة بينه وبين الرجل الواقف أمامه ولكنه قال فى شئ من البساطة الممزوجة بالحدة :

— هل رأت مس هوب ذلك الشئ الملصق على الزجاج ؟

فكرر انجوس قول الرجل فى لهجة الاستفهام

— على الزجاج ؟

فقال الليونير الصغير الجسم

— الوقت لا يتسع لشرح أمور أخر فهنا سخرية حمقاء تستدعى التحقيق

وأشار الرجل بعصاه إلى زجاج الواجهة التى أخرج انجوس من لحظة أكثر محتوياتها فاذا بشريط طويل من الورق ملصق على ذلك الزجاج ، فدهش انجوس لذلك فما من شك فى أن هذه الورقة لم تكن منذ لحظة موجودة حيث هى الآن ، وخرج إلى الشارع وراء الليونير النشيط وفحص شريط الورق فوجد طوله يبلغ حوالى ياردة ونصف الياردة وقد دهن بالصمغ وألصق بالزجاج بعناية تامة ، وقد كتب عليه بخط مشوه : « إذا تزوجت من اسمث فسيموت »

فدانجوس رأسه الأحمر الكبير داخل الحانوت وصاح :

— لورا . . . إنك لست مجنونة

فقال اسمث فى شئ من الخشونة :

— هذا خط ذلك الرجل « ويلكن » ، إنى لم أره منذ سنوات ولكنه مازال يضايقنى ، ففى الخمسة عشر يوماً الماضية وجدت فى مسكنى خمسة خطابات تهديد منه وصلت إلى البيت بطريق خفية . ولقد أقسم البواب أنه لم ير إنساناً ممن يمكن أن توجه إليه أية شبهة قد دخل البيت . ثم هذا هو يلصق على زجاج الحانوت هذا النوع من التهديد العلنى بينما القوم الذين فى الداخل . . .

فقال انجوس فى تواضع :

— صدقت ! بينما القوم الذين فى الداخل كانوا يشربون الشاى . الحق ياسيدى أننى معجب بأسلوبك فى معالجة الأمور بمثل هذه الصراحة . ويمكننا أن نتكلم فى المسائل الأخرى فيما بعد . أما الآن فان الرجل الذى ألصق هذه الورقة لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيراً عن هذه النقطة فانى أؤكد لك أن هذه الورقة لم تكن حيث هى الآن عند ما جئت إلى الواجهة منذ عشر أو خمس عشرة دقيقة على الأكثر . غير أنى أرى من ناحية أخرى أنه

أبعد من أن نستطيع اللحاق به لأننا لا نعرف الاتجاه الذى سار فيه . وإذا قبلت نصيحتى يامستر اسميث فانى أنصح لك بأن تعهد بهذا الأمر إلى رجل إخصائى فى تقصى الأخبار وإنى أفضل أن يكون رجلا خاصاً على أن يكون من ارجال الرسميين ، وإنى أعرف رجلا ماهراً جداً فى هذه المهنة لايبعد مسكنه عن هنا أكثر من مسافة خمس دقائق فى سيارتك واسمه « فلامبو » وعلى ارغم من أنه كان فى شبابه محوطاً بكثير من الشكوك فانه الآن رجل شريف جد أمين وآراؤه تساوى المال الكثير ، ومقره فى لا كنو مانسونز هامبستد .

فقال ارجل الصغير الجسم وقد تقوس حاجبه الأسود :

— هذا غريب فانى أنا نفسى ساكن فى هيالايا مانسونز بعيد المنحنى . واملك تتكرم بمرافقتى ، فسأذهب إلى بيتى لاعداد هذه المستندات العجيبة التى جاءتنى منه ولكن بينما نذهب أنت لاحضار صاحبك البوليس السرى الخاص .

فقال انجوس فى كثير من الأدب :

— أحسنت ، فكلما أسرعت كان ذلك خيراً

وحيا الرجلان الفتاة ثم استقلا السيارة ، فما كادت تجتاز منحنى الشارع حتى رأى نجوس اعلاناً كبيراً عن « خدمة اسميث الصامتة » وفيه صورة عروس كبيرة من الحديد من غير رأس تحمل فى يديها وعاء كبيراً وقد كتب عليها « الطاهية التى لا تغضب أبداً » .

فقال الرجل النحنى ضاحكا :

— إنى أستعمل هذه المخترعات فى بيتى للاعلان من ناحية وللخدمة الحقيقية من الناحية الأخرى . والحق أن هؤلاء الخدم الصامتين ليقضون حاجاتك بأسرع مما يقضيها الخدم الأحياء لو أنك عرفت أى زر تضغط . على أنى لا أنكر أنه كما لهذه الأدوات مميزاتها فان لها أخطاءها أيضاً

فسأله أنجوس :

— حقاً ؟ أهناك ما لا تستطيع أن تعمله ؟

فأجاب اسميث فى هدوء :

— نعم فانها لا تستطيع أن تخبرنى من الذى ترك لى هذه الخطابات التهديدية فى بيتى

كانت سيارة الرجل صغيرة وسريعة مثله وهى كأدوات الخدمة من صناعته ، فقطعت بهما فى دقائق قليلة مسافات بعيدة فى ذلك الركن من انجلترا الذى يشبه فى جمال مناظره الطبيعية ناحية ايدنبرج . وأخيراً وصلا إلى هملايا مانسونز ولا تزال فى الوجود بقية من نور النهار ، وما اجتازت السيارة المنحنى حتى رأى الرجلان فى إحدى ناحيتى الطريق رجلاً يبيع البندق وفى الناحية الأخرى جندياً من جنود البوليس ، وكان هذان كل من وجد فى هذه الساعة على مقربة من بيت اسميث ، وكان شخصاهما ساعة الغسق أشبه فى نظر أنجوس بشبحين من أشباح التاريخ ...

وقفت السيارة فجأة أمام البيت ، واندفع منها صاحبها يسأل ساعياً طويل القامة يرتدى ملابس رسمية براقة ، وبواباً يلبس قميصاً قصير الأكمام عما إذا كانا قد رأيا أحداً يدخل إلى الدار أو أن شيئاً غير عادى قد حدث فى أثناء غيابه . فأكد له الرجلان أن لا أحد دخل البيت وأن لا شىء حدث منذ رآها آخر مرة . فدخل هو وأنجوس إلى البيت واستقلا المصعد الذى اندفع بهما صاعداً فى سرعة البرق إلى الطابق الرابع

وقال اسميث لصاحبه :

— أرجو أن تتفضل بالدخول والانتظار لحظة حتى أحضر لك خطابات وبلكن، وبعدذلك تذهب إلى الناحية الأخرى من الطريق فتدعو صاحبك

وضغط اسميث زراً مختفياً فى الجدار فانفتح باب مسكنه من تلقاء نفسه ، وينفتح الباب على ردهة صغيرة كل ما فيها من الأثاث صفان من الأشخاص الميكانيكية واقفين على الجانبين أشبه بنماذج الخائطين ، وهى مثلها بلا رؤوس وإن كانت بارزة الصدور مملوءة الأكتاف ، ولكل منها خطافان يعملان عمل الأيدى والسواعد فى حمل الصواني ، وما كاد الباب يفتح حتى رأى اسميث فى يد أحد هذه الأشخاص ورقة بيضاء مكتوبة بالحبر الاحمر لم يكن مدادها قد جف بعد . فاختطفها الرجل وناولها لانجوس وكان هذا هو نص ما كتب فيها : « إذا أنت رأيتها اليوم فسأقتلك »

وسكت الرجلان لحظة ثم قال إزبدور اسميث :

— أتشرب قليلا من الوسكى فاني أشعر أن بى حاجة إلى القليل منه .

فأجاب أنجوس فى شىء من الكآبة :

— شكراً ، ولكنى أفضل أن أرى فلامبو فهذه المسألة تزداد جسامة فلا أذهب لأحضره فى الحال فقال الآخر وعليه من مظاهر الانشراح ما يدعو إلى الاعجاب :

— أحسنت فلتحضره إلى هنا بأسرع ماتستطيع

ولكن لم يكد أنجوس يقفل الباب الخارجى وراءه حتى رأى اسميث قد ضغط أحد الأزرار فتحركت إحدى الجوارى الميكانيكية وتقدمت حاملة صينية فوقها معدات الشراب . فشعر أنجوس بشىء من الخوف على الرجل الصغير أن يترك وحيداً بين هذه الدمى الميكانيكية التى دبت فيها الحياة على أثر إغلاق الباب

ولم يهبط أنجوس ست درجات من درجات السلم حتى وجد البواب منهمكا فى بعض العمل فأوصاه وهو يناوله قطعة من النقود بأن يبقى فى مكانه إلى أن يعود وأن يرقب أى أجنبى يصعد السلم ، حتى إذا خرج من باب العمارة أوصى الساعى الواقف أمام الباب بمثل هذه الوصية ، ومنه علم أن ليس للبناية باب خافى ، ولم يكتف بذلك بل دعا رجل البوليس الذى يمر فى الشارع وطلب منه أن يرقب مدخل البيت إلى أن يعود ، وترك رجل البوليس إلى بائع البندق فسأله كم من الوقت يعتزم البقاء حيث هو ، وكان الرجل قد رفع ياقته مستعداً للذهاب لأنه يتوقع أن يتساقط الثلج . ولكن أنجوس رجاه أن يبقى فى مكانه وأن يأكل كل مامعه من البندق وقال إنه سيعطيه جنيهاً متى عاد على أن يرقب المدخل ويخبره إن كان قد دخل البناية أى رجل أو امرأة أو طفل .

فلما انتهى من إعداد هذه التحوطات سار ممعجباً بعمله ناظراً نظرة أخيرة إلى الحصن الذى أحاطه بهذا الحصار المحكم وقال يحدث نفسه :

— لقد أحطت البناية بحلقة قوية ولا يمكن أن يكون هؤلاء الأربعة جميعاً من شركاء مستر وبلكن

كان مسكن مستر فلامبو فى الطابق الأول من بناية لا كنو مانسونز ، وكان بسيط الرياش ، فلما وصل إليه أنجوس تلقاه صاحب الدار فى غرفة فيها بضعة مقاعد وكل زينتها أنواع من السيوف والقطع الأثرية الشرقية ، وكان يجالسه فيها فى هذه الساعة

قسيس كاثوليكي كان وجوده في هذا المكان في نظر انجوس في غير موضعه

فقال فلامبو :

— هذا صديق الأب برون ولكم وددت أن تقابله . الجو جميل الليلة ولكنه بارد قليلا بالنسبة لرجل مثلي من أهل الجنوب

فجلس انجوس على أحد الكراسي الشرقية وهو يقول :

— نعم الجو جميل وأظن أنه سيستمر صحواً

ولكن القسيس أجاب في هدوء :

— لا ، فقد بدأ الثلج يتساقط

وفعلاً كانت قطع الثلج الذي تنبأ بائع البندق بسقوطها قد بدأت تصدم زجاج الشباك وتلتصق به

فقال انجوس :

— الحق أني أتيت في مهمة خطيرة تدعو إلى الاسراع . والأمر ، يا فلامبو ، أنه على مسافة مرمى الحجر من بيتك رجل أشد ما يكون حاجة إلى مساعدتك ، فهو ملاحق ومهدد بعدو غير ظاهر وشقي لم يستطع أحد أن يراه

ولما بدأ يروي قصة اسميث وويلكن وعلاقة لورا بهما والضحكة المزعجة ، وفي الجملة تفصيل ما سمعه ، بدا الاهتمام الشديد على فلامبو في حين جلس القس كقطعة من الأثاث لا علاقة لها بالحديث. فلما وصل انجوس إلى التحدث عن قطعة الورق التي وجدت ملصقة على واجهة الحانوت هم فلامبو واقفاً وكأنه قد ملأ الغرفة بكتفيه العريضين وقال :

إذا كان لا يضايقك أن تروي لي بقية القصة في أقصر طريق يوصل إلى بيت هذا الرجل كان ذلك خيراً ، فانه يخيل إلى أن ليس لدينا متسع من الوقت نضيعه في الحديث هنا

فوقف انجوس وهو يقول :

— يسرني ذلك وإن كنت الآن مطمئناً على صاحبي فقد أوقفت أربعة رجال لمراقبة المدخل الوحيد المؤدي إلى مسكنه

فخرج الرجلان إلى الطريق يتبعهما القسيس الضئيل الجسم كالكلب الأمين يتبع صاحبه ، وكان كل ما قاله أثناء الطريق وقاله في أسلوب مرح هو :

— ما أسرع ما يتراكم الثلج على الأرض !

وقبل أن يصل الرجال الثلاثة إلى الشارع الواقعة فيه البناية كان أنجوس قد انتهى من سرد قصته ، فلما وصل إلى قريب من البيت تطلع يبحث عن الرجال الأربعة الذين عهد إليهم بالمراقبة ، حتى إذا وجدهم حيث تركهم بدأ بسؤال بائع البندق الذي أقسم مؤكداً قبل أن يتسلم الجنيه وبعد أن تسلمه أنه لم ير أي زائر قد دخل البيت ، وكان رجل البوليس أشد من البائع توكيداً ، وقد قال أنه تعود معرفة اللصوص من كل نوع لا يخدعه تخفيهم وراء الملابس الغالية والقبعات العالية ، فهو لا يقتصر في تعرف المشبوهين بما يبدو من أعمالهم التي توجه الشبهة اليهم ، وهكذا وكد أنه لم يدخل البيت أي إنسان ... أما الساعي ذو الملابس البراقة فقد كان لا يزال واقفاً عند مدخل الباب يبتسم ابتسامته العريضة ، وكان توكيده أشد من صاحبيه فقد قال :

— إن لي الحق في أن أسأل أي إنسان دوقاً كان أو كناساً ، ماذا يريد من دخوله هذه البناية ، وإني لأقسم أنه لم يحضر منذ خروج هذا السيد أي إنسان يستدعي الأمر سؤاله

وكان الأب برون واقفاً لا يكترث أحد لوجوده

فلما سمع هذه الكلمات تدخل فى الموضوع ، فقال فى لهجة فيها شىء من التهكم :

— إذن لم يصعد أحد الدرج ولم يهبطه منذ بدأ الثلج فى السقوط ؟ ولقد بدأ على ما أذكر ونحن فى بيت فلامبو

فقال الرجل الرسمي وهو يضحك ضحكة ذى النفوذ :

— لا يا سيدى ، لم يأت أحد قط إلى هنا ، وكن واثقاً من قولى هذا

فقال القسيس وقد نظر إلى الأرض بعينين تشبهان عيون السمك :

— إذن إنى لأعجب ، ما هذا ؟

فنظر الجميع إلى حيث ينظر القسيس فتلفظ فلامبو بلفظة شديدة مشيراً إشارة فرنسوية ، فقد كان هناك بالفعل على الأرض وسط المدخل وبين ساق هذا الساعى الكبير الجسم آثار أقدام غبراء فوق الثلج الأبيض

فصاح أنجوس عن غير قصد :

— إلهي ... الرجل الخفى !

ودون أن ينطق بكلمة أخرى اندفع ساعداً الدرج يتبعه فلامبو ، أما الأب برون فقد بقى واقفاً حيث هو ينظر إلى الشارع المغطى بالثلج وكأنه قد أهمل شأن الطريدة

وكاد فلامبو يكسر الباب بكتفه القوى ولكن الفتى الاسكتلندى تحسس بيده إطار الباب حتى عثر على الزر الخفى فضغطه فبدأ الباب ينفتح على مهل

وكان المدخل والردهة على حالها لولا أن اثنتين من الدمى الحديدية قد تحركتا من مكانهما لقضاء بعض الأعمال على ما يظهر ، وكانت العتمة قد بدأت تخيم داخل الدار لولا بقية من شعاع الشمس الغاربة ، وهناك وسط الدمى حيث وجدت قطعة الورقة رأى أنجوس على الأرض بقعة حمراء كأنها بقعة مداد انسكبت من دواة ولكنها لم تكن من المداد

فصاح فلامبو فى لهجة جمعت بين الغضب وبين الألفاظ الفرنسوية قائلا :

— جناية قتل !

ثم انطرح على الأرض فاحصاً وبعد فترة كان الرجلان يفتشان كل نقطة فى البيت ليعثرا على إزيدور اسميث حياً أو ميتاً فلم يجدا له أثراً ، ثم تقابلا وجهاً لوجه بعد البحث الدقيق ، فقال فلامبو متكلما بالفرنسية من شدة تأثره :

— يا صاحبي ... إن القاتل لم يختف وحده ولكنه أخفى القتيل أيضاً

فنظر أنجوس حوله فى الغرفة المظلمة وأحس برعشة خفيفة داخل نفسه ، فقد كانت إحدى الدمى واقفة بحيث يسقط ظلها على نقطة الدم وكانت ساعدها مرفوعة قليلا ، فخطر له أن تكون هذه الساعد هى التى أصابت اسميث فقتلته وهكذا تكون المادة قد ثارت وقد قتلت هذه المخلوقات الآلية خالقها ولكن حتى فى هذه الحالة يعترضنا هذا السؤال الطبيعى : « ماذا فعلت هذه الدمى بقتيلها ؟ »

فألقى الوهم المخيف فى أذنه هذه الجملة فى لهجة الاستفهام :

— أكانه ؟

فساخت نفسه لمجرد التفكير فى أن جسماً بشرياً يتلاشى ويهضم فى جوف هذه الآلات الميكانيكية

واسترد أنجوس ثباته بشىء من المجهود النفسى وقال يخاطب فلامبو :

— نحن الآن أمام أمر واقع ، لقد تبخر الرجل

المسكين كما تتبختر السحب ولم يترك وراءه غير بقعة حمراء على الأرض . وهذا أمر لا يتصل بعالمنا الدنيوى .

فقال فلامبو :

— هناك شيء واحد يجب عمله فسواء أكان الأمر متعلقاً بهذه الدنيا أم بالآخرة، لابد لى من أن أنزل فأتكلم مع صديقى .

ونزل الرجلان فمرا بالبواب الذى كان لا يزال منهمكا فى عمله وقد أكد لهما مرة أخرى أنه لم يدع أي متطفل يدخل إلى الدار ، ثم وصلا إلى الساعى فى الملابس اللامعة فوجداه حيث تركاه وقد كرر توكيده أن إنساناً لم يدخل البيت ، وكذلك وجدا بائع البندق الذى كرر هو أيضاً مثل هذا التوكيد ولكن عندما بحثا عن الحارس الرابع رجل البوليس لم يجداه فصاح انجوس فى حال عصبية :

— أين رجل البوليس ؟

فقال الأب برون :

— عفوا فقد أرسلته للبحث فى أمر وجدته يستحق البحث والاستقصاء .

فقال انجوس فى لهجة قاطعة :

— حسن ولكننا أشد ما نكون حاجة إلى عودته فان صاحبنا المسكين لم يقتل فقط ولكنه قد اختفى وزال كل أثر له .

فسأل النفس :

— وكيف كان ذلك ؟

فقال فلامبو بعد قليل من التردد :

— إنى لأعتقد بأني أن الأمر أدخل فى باب اختصاصك منه فى باب اختصاصى . فان البيت لم يدخله صديق ولا عدو وعلى الرغم من ذلك قد سرق اسميث كما لو تكون العفاريت قد اختطفته ، فاذا لم يكن هذا أمراً خارقاً للطبيعة فانى ...

وقطع الحديث وصول رجل البوليس فى ملابسه الزرقاء جارياً يلهث حتى وقف أمام الأب برون وقال:

— صدقت ياسيدى فانهم وجدوا جثة المسكين مستر اسميث ملقاة هناك فى القناة

فلطم انجوس رأسه بيده لطمة شديدة وسأل :

— هل جرى إلى القناة وانتحر غرقاً ؟

فقال رجل البوليس :

— إني أقسم أنه لم ينزل من البيت ثم هو لم يغرق نفسه أيضاً ولكنه مات مقتولا بطعنة بالغة فوق القلب

فقال فلامبو فى صوت خشن :

— ومع ذلك لم تر إنساناً يدخل البيت ؟

فقال الراهب :

— فلنمش قليلا فى الطريق .

فلما وصلوا إلى الجانب الآخر من الطريق قال النفس :

— ما أشد غباوتى، لقد نسيت أن أسأل رجل البوليس إذا كانوا قد وجدوا كيساً رمادى اللون

فسأل انجوس مندهشاً :

— ولماذا يجدون الكيس الرمادى اللون ؟

فقال الأب برون :

لأنه إذا كان الكيس من لون آخر فيجب أن تبدأ القضية من جديد . أما إذا كان الكيس رمادياً فقد انتهت القضية

فقال انجوس وفى لهجته تهكم صادر عن اعتقاد

— يسرني أن أسمع هذا الكلام ، فان القضية فيما يتصل بعلمى لم تبدأ بعد

فقال فلامبو فى سذاجة متناهية كسذاجة الطفل :

— يجب أن نخبرنا بكل شئ

كان الرجال الثلاثة يسيرون بخطى تزداد سرعتها من غير قصد حتى قطعوا مسافة غير قليلة على الجانب الآخر من الطريق . وكان الأب برون يتقدمهم صامتاً وقد بدا عليه شيء من الوجوم . وأخيراً قال في غموض يسترعي النظر :

— الحق أني أخشى أن تظنوا الأمر جد سهل فنحن دائماً نبدأ من الطرف الغامض في الموضوع ، وإنكما لن تستطيعا بدء هذه القصة من ناحية أخرى

« ألم تلاحظا قط هذا الأمر — إن الناس لا يجيبون أبداً عما يسألهم الانسان عنه ؟ إنهم دائماً يجيبون بما تقصد أنت أو بما يتوهمون أنك تقصده . ولنفرض أن سيدة سألت سيدة أخرى تسكن بيتاً من بيوت الريف : « هل يقيم أحد معك ؟ » فان السيدة لن تجيب : « نعم ، إن معي في البيت الساقي وثلاثة من الرجال وخادم من النساء » إلى غير ذلك على الرغم من أن الخادمة قد تكون في هذه اللحظة واقفة في الغرفة والساقي قد يكون واقفاً وراء كرسيها . ولكنها تقول : « لا يوجد معي أحد في البيت » وقصدها « أحد » فمن تعني أيها السائل . ولكن افرض أن طبيباً موكلا باتخاذ بعض الاجراءات الصحية سألها : « من يقيم في هذا البيت ؟ » عندئذ تتذكر السيدة الساقي والخدم جميعاً لا تنسى منهم أحداً . واللغة كلها تسير على هذا النمط ، فانك لن تحظى على سؤال توجهه لأي إنسان بجواب يتفق مع حرفية هذا السؤال حتى وإن كان الجواب صادقاً ، فهؤلاء الرجال الأربعة الأمناء عند ما قالوا إنه لم يدخل البناية إنسان ما لم يقصدوا في الواقع مطلق إنسان ، ولكنهم قصدوا « الانسان » الذي يمكن أن يشتبهوا في أنه « الانسان » الذي تبحثان عنه فما من شك في أن إنساناً قد دخل البناية وقد خرج منها ولكنهم لم يلاحظوه

فسأل انجوس راقماً حاجبيه الحراوين :

— رجل خفي ؟

فأجاب الأب برون :

— خفي معنوياً

وبعد دقيقة أو دقيقتين استأنف القس كلامه في نفس اللهجة المتواضعة فقال :

— إن الانسان بحكم الطبيعة لا يستطيع أن يفكر في مثل هذا الرجل إلا إذا فكر فيه فعلا . وهذا هو مبعث مهارته . ولكنني استطعت أن أفكر فيه من خلال أمرين أو ثلاثة أمور صغيرة في القصة التي رواها لنا مستر انجوس : الأول ما قاله من أن ذلك الرجل وبلكن تعود أن يسير مسافات طويلة ، والثاني الورقة التي ألصقت على واجهة الحانوت ، ويأتي بعد ذلك المسألتان اللتان ذكرتهما السيدة الصغيرة واللتان لا يمكن أن تكونا حقيقيتين

وهنا بدت من مستر أنجوس حركة خفية فقال القسيس وهو مستمر في حديثه :

— أرجو ألا يضايقك كلامي ، فقد اعتقدت هي أنهما حقيقيتان ولكنهما لا يمكن أن تكونا حقيقيتين ، فمن المستحيل أن يكون الانسان وحيداً في الطريق قبل أن يصله خطاب ما ببضع ثوان ، ولا يمكن أن تكون وحيدة في الشارع في اللحظة التي بدأت تقرأ فيها الخطاب ، فلا بد أن يكون على مقربة منها إنسان ما ، وهذا الانسان لا بد أن يكون خفياً معنوياً

فسأله أنجوس :

— ولماذا لا بد أن يكون هناك إنسان على مقربة منها ؟

فقال الأب برون :

— لأنه فيما عدا الحمام الزاجل لا بد أن يكون إنسان قد أحضر لها الخطاب

فسأل فلامبو وقد بدا عليه النشاط :

— أتريد حقاً أن تقول إن وبلكن هو الذي حمل خطاب منافسه إلى خطيبته ؟

فأجاب الراهب :

— نعم لقد حمل وبلكن خطاب منافسه إلى خطيبته وكما ترى لا بد أن يكون قد فعل

فصاح فلامبو :

— إنني لا أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا ، فمن هو هذا الانسان ؟ وما هو منظره ؟ وكيف يكون تكوين الرجل الخفي معنوياً ؟

فأجاب القسيس على الفور وفي لهجة التوكيد :

— إنه يرتدي ملابس أنيقة تجمع ألوانها بين الأحمر والأزرق والذهبي ، وفي هذا اللباس الجذاب بل والخادع دخل الرجل هميلايا مانسونز أمام ثمانية أعين ترقبه ، وقتل اسميث وهو ثابت مطمئن ثم عاد إلى الشارع يحمل القتيل بين ساعديه ...

فوقف انجوس جامداً وقال :

— أيها السيد المحترم، هل جننت أم أنا الذي جن؟

فقال الأب برون :

— إنك لست بمجنون ، ولكنك لست شديد الملاحظة ، لأنك مثلا لم تر إنساناً مثل هذا ...

وخطا القسيس ثلاث خطوات واسعة للامام فوضع يده على كتف رجل من سعاة البريد العاديين سراً إلى جانبهم تحت ظلال الأشجار دون أن يتنبهوا إليه

واستمر الراهب يقول وهو منهمك في التفكير

— إن الانسان لا يتنبه عادة إلى سعاة البريد ، على الرغم من أن لهم عواطف كغيرهم من الناس ومن أن في مقدورهم أن يحملوا أكياساً كبيرة لا يصعب أن يختفي داخلها جسم إنسان صغير الحجم

وبدل أن يتلفت ساعي البريد تلفتاً طبيعياً مال ووقع على الأرض مرتطما بسور الحديقة . وكان رجلا نحيلا خفيف شعر اللحية عادي المنظر ، ولكنه حين أدار وجهاً غمره الجزع أخذ الرجال الثلاثة بما في عينيه من حول شيطاني مروع

* * *

عاد فلامبو إلى مسكنه حيث ينهمك بين سيوفه وأبسطته القرمزية وقطه المجمي منجزاً ما لديه من أعمال، وعاد جون ترنبول أنجوس إلى فتاة الحانوت التي بذل أقصى جهده في التلطف لها . أما الأب برون فقد مشى عدة ساعات صاعدا تلك التلال المغطاة بالثلج تحت نجوم الليل في صحبة قاتل ، ولن يعرف أحد ما جرى بينهما من حديث ...

عبد الحميد حمدي

أشهب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
يطلب من مكتبة الزهراء شارع الفلكي بباب اللوق
وسائر المكتبات المصرية الشهيرة